إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ٥

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة



مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

بين العالمية الإسلامية
والعولمة الغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (٥)

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٥٦٤ ـ ١١ / ١ / ٢٠٠٩م

ISBN

977- 5291 - 89 - 5

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر ـ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية/ محمد عمارة . ـ القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .

٨٠ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ٥١)

٩٧٧ ٥٢٩١ ٨٩ ٥

١ـ الإسلام والمجتمع ٢ـ العولمة

أ ـ العنوان ب ـ السلسلة ٣٠١ , ٢١٤

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر ـ ت ٢٥١٤٤٠٧٣

جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ ـ ٠١٠/٦١٨٦١١٤

مُقَدِّمَة

كان سقوط المنظومة الماركسية ، وأحزابها الشيوعية ، ومعسكرها الاشتراكي سنة ١٩٩١ م انتصارًا للإيمان الديني ، وهزيمة لأعظم التحديات المادية والدهرية والإلحادية التي واجهت الإيمان الديني عبر تاريخ هذا الإيمان ..

ذلك أن المنظومة الماركسية وأحزابها قد جعلت الإلحاد رسالة تدعمها وتنشرها حكومات تحكمت في أمم وشعوب وطبقات ومؤسسات فكرية وتعليمية مَثَّلَتْ ثقلاً عريضًا على امتداد سنوات القرن العشرين .. فلقد حَكَمَتْ ثلث البشرية ، وامتدت بفلسفتها الإلحادية عبر الأحزاب الشيوعية التي انتشرت في كل الأقطار والقارات ..

لذلك ، فرح المؤمنون بنصر الله عندما حدث هذا السقوط .

لكن .. لأن الماركسية وأحزابها وحكوماتها قد كانت انقسامًا وانشقاقًا -فلسفيًا واجتماعيًا وسياسيًا وعسكريًا- في الحضارة الغربية المهيمنة ، كان وجود هذه المنظومة الماركسية عامل إضعاف وتحجيم لغطرسة الإمبريالية الرأسمالية الغربية .. ومجالاً لاستفادة المستضعفين من هذا الانقسام .. وسببًا من أسباب التوازن النسبي في النظام الدولي ، ساعد حركات التحرُّر الوطني في عالم الجنوب -وفي القلب منه عالمنا الإسلامي- كما ساعد هذا التوازن على قيام

المنظمات الإقليمية في عالم الجنوب ، وفي مقدمتها حركة عدم الانحياز .. وفتح الأبواب أمام حضارات الجنوب - وخاصة الإسلامية والصينية والهندية - لتجد لها مكانًا في منتدى الحضارات العالمية

ولذلك ، كان سقوط الماركسية - على الجانب السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ - انتكاسة كبرى لشعوب الجنوب ، ولحركات التحرُّر الوطني ، والاستقلال الاقتصاديّ ، والانعتاق الثقافيّ لدى الشعوب المستضعفة على وجه الخصوص .

ولقد فتحت هذه الانتكاسة الأبواب - مرة أخرى - أمام وحدة « قبضة الإمبريالية الغربية » من جديد .. وعلى نَحْوٍ أقوى مما كانت عليه قبل ثورة أكتوبر البلشفية سنة ١٩١٧ م التي بدأت ذلك التناقض العدائي والانقسام الحادّ في صفوف الأعداء - فرأينا تفرد الإمبريالية الأمريكية بالنظام العالمي ، الأمر الذي جعله - بعد غيبة توازن من الثنائية القطبية - أدخل في « الفوضى العالمية » منه في أي لون من ألوان « النظام » ! .. ورأينا الترويج « للحرب الاستباقية » .. والتنظير لـ « مشروعية التدخل » في الشئون الداخلية للدول الضعيفة .. والحديث عن دولنا كدول « منقوصة السيادة » ! .. والعبث بضوابط القانون الدولي والشرعية الدولية والمؤسسات الدولية في حلّ المنازعات .. الأمر الذي انتقل بعلاقات الإمبريالية الأمريكية مع

العالم - وخاصة عالم الإسلام وبلاد الجنوب - من مرحلة « غطرسة القوة » - التي قامت بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م - إلى مرحلة « جنون القوة » - التي بدأت بعد سقوط الماركسية والمعسكر الاشتراكي سنة ١٩٩١ م .. والتي تمت ممارستها في غزو أفغانستان سنة ٢٠٠١ م .. والعراق سنة ٢٠٠٣ م .. والصومال سنة ٢٠٠٥ م . وفي إعلان المحافظين الجدد : أن القرن الواحد والعشرين هو قرن الإمبريالية الأمريكية وحدها ، لأن أمريكا هي شعب الله المختار ![١] .

في هذا المناخ المأساوي ، ولد مصطلح « العولمة » .. وتَمَّ الكشف والإعلان عن واقع صدام الحضارات ، وتحديدًا صدام الحضارة الغربية - بقيادة أمريكا - مع الحضارة الإسلامية أولا .. ثم الصينية ثانيًا .. لضمان استبداد أمريكا - والغرب - بمقدرات العالمين .. ولمنع بروز أي قطب آخر منافس لأمريكا على النطاق العالمي .. فالحلم الأمريكي - حلم العولمة - هو جعل القرن الواحد والعشرين قرن الأمريكان ! ..

ولقد كشفت الدراسات والوثائق والاتفاقات التي صاغتها مؤسسات الهيمنة الغربية ، والتي تمت « عولمتها » تحت علم الأمم

---

(١) انظر : هيربرت أرمسترنج [أمريكا هل هي شعب الله المختار ؟] ترجمة : سامي أحمد - ط القاهرة ، ٢٠٠٢م .

المتحدة ، عن أبعاد هذه العولمة ، الطامعة في « صبِّ العالم في القالب الأمريكيِّ الغربيِّ » - سياسيًا .. واقتصاديًا .. واجتماعيًا .. وثقافيًا .. وقيميًا .. ودينيًا .. وعسكريًا - الأمر الذي جعل هذه « العولمة » فتنة كبرى ومحنة عظمى وابتلاءً شديدًا أمام عالم الجنوب - وفي القلب منه عالم الإسلام .

لذلك ، كان الكشف عن حقيقة هذه العولمة ومقاصدها في الميادين المختلفة .. وعن المخاطر التي تُمثِّلُهَا على دولنا وشعوبنا وسياساتنا واقتصاداتنا وثقافتنا وديننا . وكذلك الكشف عن الفروق الحقيقية والكبيرة بين هذه « العولمة » وبين « العالمية » - والعالمية الإسلامية تحديدًا . وكذلك الكشف عن الحل الإسلامي لمأزق الرأسمالية العالمية ، الذي يهدِّد العالم بالخراب ..

كان الكشف عن هذه الحقائق الكبرى .. وتزويد العقل المسلم بسبل المواجهة لمخاطر العولمة هذه .. كان ذلك فريضة فكرية كبرى - عاجلة .. ومنشودة .. تسعى للقيام بطرف منها صفحات هذا الكتاب ، الذي ندعو الله أن يَنْفعَ به .. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب .

د . محمد عمارة

القاهرة في ٩ ذو القعدة ١٤٢٩هـ

الموافق ٧ نوفمبر ٢٠٠٨ م

العالمية الإسلامية والعولمة الغربية
على طرفي نقيض

إذا أردنا المقارنة بين « العالمية الإسلامية » وبين « العولمة الغربية » فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إنهما على طرفي نقيض .

فالعالمية الإسلامية هي : تنوّع .. وتعارف .. وتعايش .. وتدافع وتسابق - في إطار الوحدة الإنسانية والمشترك الإنساني العام .

أما العولمة الغربية ، فإنها : صراع .. وتفتيت .. وفوضى - يسمونها خلاّقة ! - في إطار الهيمنة الغربية ، التي تريد صبّ العالم في القالب الحضاريّ الغربيّ دون سواه ..

مصطلح العالميّة :

إن العالمية هي نزعة إنسانية ، وتوجّه نحو التفاعل بين الحضارات ، والتلاقح بين الثقافات ، والمقارنة بين الأنساق الفكرية ، والتعاون والتساند والتكامل والتعارف بين الأمم والشعوب والدول ، ترى العالم « منتدى حضارات » ، بينها مساحة كبيرة من « المشترك الإنساني العام » ، ولكل منها « هوية ثقافية » تتميز بها ، ومصالح وطنية وقومية وحضارية واقتصادية وأمنية لابد من مراعاتها ، في إطار « توازن المصالح » وليس « توازن القوى » بين هذه الأمم والحضارات .

وإذا كانت عين الفاحص لا تخطئ التمايز الحضاريّ في هذا « المنتدى العالمي » ، عندما ترى الخصوصيات الحضارية لكل من الصين والهند واليابان والغرب والإسلام - وغيرها من

الحضارات - فإن عقل الباحث لا يخطئ أيضًا تميز بعض الحضارات « بالمحلية » - مثل الهند والصين واليابان - بينما تميزت وتتميز كل من الحضارات الإسلامية والغربية بصلاحيات التمدد العالميّ ، وإمكانات العطاء خارج الحدود الجغرافية التاريخية لشعوب هاتين الحضارتين .

تميزت بذلك النزوع العالميّ الحضارة الأوربية الغربية ، منذ طورها الإغريقيّ / الرومانيّ .. وتميزت به الحضارة الإسلامية منذ أن خرجت من بين دفتي القرآن الكريم ..

فمن القرآن الكريم ولدت مقومات الأمة الإسلامية الواحدة ، وخرجت الصبغة الإسلامية لحضارة هذه الأمة ، وجاءت عالميتها كثمرة من ثمرات عالمية الرسالة الإسلامية والشريعة الإسلامية ، التي شاء الله ، سبحانه وتعالى ، أن يختم بها شرائع السماء إلى الإنسان ..

ولهذه الحكمة جاء الحديث القرآني عن هذه العالمية منذ العهد المكيّ للدعوة ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٤] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ..

فكانت هذه الأمة الإسلامية وحضارتها دائمة التَّحقُّق حيثما امتدت تعاليم الإسلام وقيمه وثقافته، على امتداد الزمان والمكان، ولذلك، لم يأت تعريف « الأمة » في المصطلح القرآنيّ عنوانًا على الصفات اللصيقة والمغلقة والجامعة المانعة .. وإنما جاء عنوانًا على « الجماعة » – أية جماعة – المنفتحة دائمًا وأبدًا .. والمستوعبة دائمًا وأبدًا .. والممتدة دائمًا وأبدًا .. والدائمة التَّحقُّق على اختلاف الأزمان .. والأمكنة .. والمجالات ..

* * * *

لكن هذه « العالمية الإسلامية » لا تعني – في الرؤية الإسلامية – انفراد الحضارة الإسلامية بالعالم، وإلغاءها « للآخر الحضاريّ » .. بل إنها تعني التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر، في ظل التأكيد على أن التَّعدُّديَّة الحضاريَّة والتنوّع الثقافي والاختلاف في الشعوب والأمم والقبائل .. وفي الألوان والأجناس والأعراق .. وفي الألسنة واللغات – ومن ثَمَّ في القوميات – .. وفي الشرائع والملل الدينية .. وفي المناهج والمذاهب والثقافات والفلسفات والحضارات .. إن كلَّ هذا التنوّع والتمايز والاختلاف هو القاعدة الطبيعية، والقانون التكوينيّ، والسُّنَّة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل.

إن أية حضارة من الحضارات إنما تتميز عن غيرها ببصمتها

الثقافية .. وإن أية ثقافة من الثقافات إنما تتميز عن غيرها برؤية إنسانها للكون ، ولمكانة هذا الإنسان في هذا الكون .

وإذا كانت الحضارة الغربية ، في ظل « لاهوتها النصراني » قد رأت الإنسان صورةً لله .. وفي ظلّ « حداثتها الوضعية العلمانية » ، قد رأت الإنسان سيّدًا لهذا الكون .. فإن الحضارة الإسلامية قد انطلقت من رؤية للكون ترى : الواحدية والأحدية فقط للذات الإلهية ، المُنَزَّهَة عن النّدّ .. والشّبيه . والمثال .. كما ترى أن كل عوالم الخلق - في الإنسان .. والحيوان .. والنبات .. والجماد - أي كل ما عدا الذات الإلهية ومن عداها - قائمة على سُنّة التّنوّع .. والتعدُّد .. والتمايز .. والاختلاف .. فالناس شعوب وقبائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . والناس ألسنة ولغات وقوميات وألوان وأجناس ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .. والناس يتنوعون إلى ديانات ومعتقدات ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] .

والناس يتمايزون في الشرائع والثقافات والحضارات ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا

مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

فالناس سعيهم شتى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ٤] ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] .. والتدافع « والحراك والتسابق هو سبيل رأب الصدع وتعديل الخلل وإعادة التوازن والميزان - الوسط .. العدل - إلى العلاقات بين الطبقات أو الأمم أو الحضارات ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ..

وليس « الصراع » ، الذي يصرع فيه طرفٌ الأطرافَ الأخرى ، فينفرد هذا الطرف بالساحة والثمرات والامتيازات ، مُنهِيًا التعدُّد والتنوُّع والاختلاف ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ - ٨]

ذلك هو المفهوم الإسلامي للعالمية : نزوع عالميّ ، يرى التعدُّد والتنوُّع والتمايز والاختلاف القاعدة والقانون في كل عوالم الخلق ، ويؤمن أن « التفاعل » هو الوسط العدل بين « العزلة والانغلاق » وبين « التبعية والإلحاق » ، فتصبح الصورة الحضارية للعالم هي صورة

« منتدى الحضارات » ، الذي يكون التكريم فيه لمطلق الإنسان .

تميز المفهوم الإسلامي للعالمية :

ولقد تميز هذا المفهوم الإسلاميّ للعالمية عن المفهوم الغربيّ للعالمية ، ليس فقط في حقبتنا الراهنة – حقبة العولمة الغربية – وإنما منذ فجر الحضارة الأوربية الغربية .. « فالنزعة المركزية » لصيقة بالنموذج الحضاريّ الغربيّ ، منذ العصر الرومانيّ ، الذي رأى أصحابه أن « الإنسان » هو « الروماني الحر » وحده ، ومن عداه « برابرة » ، وأن ما يتدين به الرومان هو الدين الوحيد ، وما عداه واجب الاستئصال .. ولقد طبقوا هذه « النزعة المركزية الواحدية » في عصر وثنيتهم بإبادة النصارى – بعد تشريد اليهود – .. وفي عهد نصرانيتهم ، باضطهاد المذاهب النصرانية المخالفة لمذهبهم « الملكانيّ » وامتدّ ذلك فيما عرف « بالحروب الدينية » بين مذاهب النصرانية – الكاثوليكية والبروتستانية التي امتدت من منتصف القرن السادس عشر وحتى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر [١٥٦٢ - ١٦٨٨ م] أي حتى عصر « التنوير » ، والتي أُبيدَ فيها نحو عشرة ملايين ، أي ٤٠ % من سكان وسط أوربا !![١] .

---

(١) هاشم صالح « التنوير الأوربي ردة فعل للاقتتال المذهبي » – صحيفة « الشرق الأوسط » – لندن – في ٢٦ – ٢ – ٢٠٠٠ م .

ثم واصلت هذه « النزعة المركزية الغربية » صراعها مع الآخر طوال عصر استعمار الغرب للأمم والبلاد والحضارات غير الغربية ، وتَمّ هذا الصراع ومحاولات الاستئصال على مختلف الصُّعُد والميادين والجبهات - على الجبهة الفكرية بإبادة البِنَى التحتيه للمواريث الفكرية لحضارات الشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة القيمية باختراق منظومة القيم الخاصة بالشعوب المستعمرة(١) - وعلى الجبهة الثقافية بتغريب المستعمرات - وعلى الجبهة الدينية ، بتنصير العالم بالنصرانية الغربية - وعلى الجبهة الاقتصادية ، بالنهب الاقتصاديّ الاستعماريّ ، الذي بَنَى رفاهية المغرب « بالفائض » الذي تحقق من إفقار الأمم والشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الأمنية ، بتحويل العالم إلى هامش للأمن الأوربيّ والغربيّ وتسخير الشعوب المستعمرة وإمكاناتها وقودًا في الحروب الاستعمارية - كما كان الفرس والرومان يصنعون - قديمًا - مع « الغساسنة » و « المناذرة » ، في النظام العالميّ القديم ! .

وهذه « النزعة الغربية في التَّمَرْكُزِ حول الذات » ورَفْضِ التَّعَدُّدِيَّة والاعتراف بشرعية وجود الآخر ، هي « صفة لصيقة » بنظرة

---

(١) الجبرتي [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] ص ٣١٠ - ٣١١ . تحقيق : حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

مشروع الهيمنة الغربية « للذات » و « للآخر » .. اعترف بها المنصفون من العلماء الغربيين .. وعنها قال المستشرق الفرنسيّ « مكسيم رودنسون » [١٩١٥ - ٢٠٠٤ م] : « إن تشجيع التَّمَرْكُزِ حول الذات ، هي صفة طبيعية في الأوربيين ، كانت موجودة دائمًا ، لكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين .. وخصوصًا في ظل الإمبريالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر »(١) .

ذلك هو المفهوم الغربيّ « العالمية » حضارته الأوربية .. مفهوم الواحدية الحضارية ، الذي يرى أن الحضارة الغربية هي وحدها العالمية والإنسانية ! - بل هي وحدها « الحضارة » ! - التي يجب أن تكون النموذج الوحيد للتحضُّر والتقدُّم .. والقالب الأوحد الذي يجب أن يُصَبّ فيه العالم جميعًا ..

الفلسفة الصراعيّة :

ولذلك ، رأى الغرب - ولا يزال يرى - أن الصراع والصدام هو الخيار الرئيسي في تحقيق هذه « الواحدية الحضارية » .. وذلك بسبب « الصبغة الصراعية » التي تماهت في بنية تكوين الحضارة

(١) د. محمد عمارة [الإسلام في عيون غربية : بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء] ص ٦٤ ، ٦٥ . طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٥ م .

الغربية ، والتي أفصحت عنها - ثم بَرَّرت لها - النظريات الرئيسية التي صبغت فلسفة الأنوار الوضعية الأوربية وفكر الحداثة الغربية وثقافتها ..

ففلسفةُ القوّة والصراع والنَّفْعِيَّة ، المُتحلِّلَة من الأخلاق ، هي جوهر فلسفة السياسة الماكيافيلية - كما صاغها « ماكيافيلي » [١٤٦٩ - ١٥٢٧ م] في كتاب [الأمير] .

وفلسفة التاريخ عند « هيجل » [١٧٧٠ - ١٨٣١م] تقيم علاقات العصور على الصراع ، الذي ينسخ فيه الجديدُ القديمَ .

والداروينية - كما صاغها « داروين » [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] في [أصل الأنواع] - تجعل الصراع هو قانون التَّقدُّم والتطور في عالم الأحياء ، فالبقاء للأصلح ، والأقوى هو الأصلح للبقاء .. ونسخه للآخرين - الضعفاء - هو القانون ! .

وكذلك الحال في الفكر الاجتماعي ، والعلاقات بين الطبقات عند « ماركس » [١٨١٧ - ١٨٨٣ م] وغيره - وهو تطبيق للفلسفة الصراعية الداروينية والهيجلية في الاجتماع - .. فالجديدُ يستأصل القديمَ ، والطبقة الجنينية يتم نموها على حساب فناءِ الطبقة السائدة .. و « العبودية » قد نسخت « المشاعية البدائية » .. ثم جاء « الإقطاع » فنسخ « العبودية » .. ثم جاءت « الرأسمالية »

فنسخت « الإقطاع » .. ولقد بشرت الماركسية بنسخ الشيوعية وديكتاتورية البروليتاريا لليبرالية الرأسمالية .. وكأنما شعار هذه « الفلسفة الصراعية » . التي صبغت الحضارة الغربية - هو : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] .. وأبادتها ! .

وهذه النزعة المركزية الاستئصالية ، هي التي جعلت مفهوم « الإنسان » - في الحضارة الغربية - هو الإنسان الغربيّ وحده ! .. ثم جعلت هذا الإنسان الغربيّ - في عصر الاستعمار - يمارس استئصال الآخر - الحضاريّ والثقافيّ - براحة ضمير عجيبة ، هي أشبه ما تكون بموت الضمير ! : لأنه يمارس ذلك الاستئصال « كرسالة » ، وكإعمال للقانون العلميّ والطبيعيّ - الذي يحكم عالم الأحياء والاجتماع - في عالم الحضارات والثقافات .. فاستئصال الشعوب - بالاستعمار الاستيطانيّ - في إفريقيا وفلسطين - هو تَمَدُّنٌ وتَحَضُّرٌ لهذه البلاد ، وذلك بتطهير أرضها من الشعوب البدائية ، ومواريثها البدائية ! .. وتنصير المسلمين هو تحقيق « الخلاص » لأرواح هؤلاء الكفار المحرومين ! .. وإزالة المواريث الثقافية للشعوب غير الأوربية ، هو تحرير لها من التخلُّف والرجعية والجمود ، وإعمال للقانون الطبيعيّ : البقاء للأقوى الأوربيّ .. الذي هو الأصلح دائمًا وأبدًا ! ..

وهذه النزعة المركزية الغربية ، التي لا ترى إلا « الذات » ، ولا تعترف بشرعية « الآخر » . بل ترى قانون التَّقَدُّم في صَرْعِ هذا « الآخر » وإزالته .. هي التي جعلت الغرب دائم النزوع إلى العدوان الاستعماريّ ضد الآخرين ، مع التبرير لهذا النزوع العدوانيّ حتى ليعتبره « الطبيعيّ » الذي لا يصح الاعتذار عنه بأي حال من الأحوال ، وفي أي ظرف من الظروف .

إن التاريخ المكتوب لعلاقة الغرب بالشرق - منذ « الإسكندر الأكبر » [٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م] وحتى الآن يبلغ أربعة وعشرين قرنًا - من القرن الرابع قبل الميلاد ، وحتى القرن الواحد والعشرين .. ولقد مارس الغربُ الاستعماريّ قهرَ الشرق - سياسيًا .. وثقافيًا .. ودينيًا .. وحضاريًا - ونَهَبَهُ اقتصاديًا على مدى سبعة عشر قرنًا من هذه القرون الأربعة والعشرين ! ..

عشرة قرون فيما قبل الإسلام - من « الإسكندر » وغزوته الإغريقية - في القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى « هرقل » [٦١٠ - ٦٤١م] - في القرن السابع للميلاد .

وقرنان هما عمر الحملات الصليبية الغربية على الشرق الإسلاميّ [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ/ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] .. وخمسة قرون ، هي عمر الغزوة الغربية الحديثة لعالم الإسلام ، بدأت بإسقاط غرناطة

[٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م] .. ولا تزال مستمرة حتى هذه اللحظات .

ولقد احتفل الغرب بمرور خمسمائة عام على بدء هذه الغزوة الحديثة ، بإقامة دورة أولمبية في « برشلونة » سنة ١٩٩٢ م - بالمكان الذي تمَّ فيه استئصال الإسلام من الأندلس - بغربي أوربا - ..وبدأ في ذات العام - سنة ١٩٩٢ م - حرب البوسنة والهرسك لاستئصال مشروع دولة إسلامية في وسط أوربا !! ..

ولأن الغرب الاستعماريّ قد رأى - ويرى - في هذا العدوان والقهر والاستئصال لمقومات « الآخر الشرقي » الدينية والحضارية « القانون الطبيعيّ » و « الداروينية الحضارية » .. فإنَّ عَيْنَهُ لم تدمع .. بل ولم تطرف ! ولم يفكر في يوم من الأيام أن يعتذر عن هذا التاريخ الطويل والدامي من القهر والاستعمار ! ..

فالبابا يوحنا بولس الثاني [١٩٢٢ - ٢٠٠٥ م] عندما زار قبر سيدنا يحيى - يوحنا المعمدان - بالمسجد الأمويّ - بدمشق - رفض أن يزور قبر صلاح الدين الأيوبيّ [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] في ذات المكان - حتى لا يكون في هذه الزيارة شبهة اعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية ! .. وأوربا وأمريكا رفضت وترفض حتى الآن أي اعتذار - حتى ولو بالكلام - عن ذلك الذي صنعوه بإفريقيا على امتداد خمسة قرون ! .. بل لقد أعلنت الجمعية

الوطنية الفرنسية سنة ٢٠٠٥ م افتخارها واعتزازها بما صنعت العسكرية الفرنسية بالجزائر ، على امتداد قرن وثلث القرن ، حيث أبادت - في الفصل الأخير من هذه المأساة - قرابة المليونين من الشهداء المسلمين الجزائريين ! ..

وكذلك كان - ولا يزال - حال « الضمير » الغربيّ مع كل « الآخرين » .. مع الهنود الحمر ، الذين أباد شعوبهم واستأصل حضارتهم .. ومع دماء أربعين مليونًا من الزنوج الأفارقة ، الذين اصطادهم القراصنة الغربيون اصطياد الحيوانات .. ثم شحنوهم في سفن الحيوانات ، ليقيموا - على عظامهم ودمائهم - رفاهية « الإنسان » الغربيّ - في أمريكا وأوربا - !! ..

ذلك هو حال النزعة المركزية الغربية ، حتى في المراحل التي سبقت طور العولمة المعاصرة .. وهكذا كانت علاقات الغرب الاستعماريّ بالآخرين ..

طور العولمة ومفهومها

وإذا كان هذا هو مفهوم « العالمية » - في الرؤية الإسلامية .. وفي الرؤية الغربية - فما هو الجديد المفاهيميّ الذي يطرحه مصطلح « العولمة » ، الذي طرأ على الساحة الفكرية والسياسية منذ سنوات ؟ ..

إن الجديد في هذه « العولمة الغربية » - عن « العالمية الغربية » - هو جديد في « الدرجة » ، وليس في « النوع » ، فنحن أمام تصاعد في درجة النزعة المركزية الغربية .. وتصاعد في حدة التطبيق الغربيّ لهذه النزعة المركزية .. وأسباب هذا الجديد - جديد العولمة - هو التطورات الموضوعية الجديدة التي طرأت على العالم ، ومن ثَمَّ على علاقة النظام الغربيّ بالعالم غير الغربيّ ..

لقد مرّ الغرب في علاقات أممه ودوله القومية بعضها بالبعض الآخر - منذ عصر التنوير - بمراحل عدة :

مرحلة الحروب الدينية .

ومرحلة الحروب القومية .

ثم جاءت مرحلة الحروق الاستعمارية لاقتسام العالم غير الغربيّ ..

ثم شهدت العقود الأولى للقرن العشرين ذلك « الانشقاق الاجتماعي » بين الشمولية الشيوعية وبين الليبرالية الرأسمالية في قلب النموذج الحضاريّ الغربيّ .. ولقد شغل هذا الانشقاق

والشقاق الاجتماعيّ واستنفد الكثير من الطاقات الصراعية لقوى النظم الغربية .. وانضم إليهما - نحو ربع قرن - صراع هذين القطبين مع الفاشية والنازية .

وفي ظلّ هذه الفرصة التاريخية ، نَمَتْ حركات التَّحرُّر الوطني في البلاد المستعمرة ، واستفادت الدول التي حققت استقلالها السياسيّ - عقب الحرب الاستعمارية العالمية الثانية - من هامش الحرية ، الذي أتاحه لها الصراع الداخليّ بين شقي الحضارة الغربية ، فحققت - بعد الاستقلال السياسيّ - مقادير متفاوتة من التنمية الثقافية والاقتصادية والعسكرية .

صحيح أن « التغريب » كان تيارًا ضاغطًا على خيارات هذه الدول والشعوب - وكما تقول المستشرقة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكة : « فلقد أخذت هذه الشعوب ، المستقلة حديثًا ، تسلك سبلاً مختلفة كي تشق طريقها إلى العالم الحديث ، فأخذت بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم ، واحتذت سيرة السادة وحياتهم وطريقتهم في العيش والتفكير ، وقلدت عاداتهم وما حَقَّقُوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية ، فتأوربوا كالأوربيين ، وتأمركوا كالأمريكيين ، وترروسوا كالروسيين .. »(١) .

---

(١) [الإسلام في عيون غربية] ص ٣٦٨ .

لكن التناقض الرئيسي في جسم الحضارة الغربية - إبان حقبة الشقاق بين الشيوعية والرأسمالية - قد أتاح لشعوبنا - رغم التغريب - مقادير من حرية الاختيار ، في إطار « غواية الترغيب والترهيب » .

فلما حدث وسقط النموذج الشمولي الماركسيّ - في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - وتَوَحّدَتْ قبضة الحضارة الغربية كما لم تَوَحّدْ من قبل - منذ عصر التنوير الأوربيّ - .. وتزامن ذلك مع ما اقتضاه « الرعب والردع النوويّ » من ضبط الغرب لتناقضاته الداخلية والاقتصادية عند حدود وسقف « الصراع غير العنيف » .. واقترنت هذه اللحظة التاريخية بثورة متسارعة وغير مسبوقة في تقنيات وسائل الاتصال - في الفكر والثقافة والإعلام .. وفي المال والاقتصاد - كان ذلك الصعود الجديد لنزعة المركزية الغربية من طور « العالمية » - بمفهومها الغربيّ ، الذي أشرنا إلى خصائصه - إلى طور « العولمة الغربية » ، التي أرادت وتريد إلغاء « هامش الاختيار » الذي كانت تتمتع به الشعوب والأمم والحضارات غير الغربية ، وإحلال مرحلة « الاجتياح القسريّ » محل مرحلة « غواية الترغيب والترهيب » .

فالعولمة الغربية ، هي طور جديد على طريق النزعة المركزية الغربية .. إنها طور الاجتياح الذي يطمع في صبّ العالم داخل القالب الغربيّ - على مختلف الصُّعُد والميادين : الاقتصادية .. والسياسية ..

والقيمية.. والثقافية .. والعسكرية – والتشريعية .. إلخ .. إلخ .

إنها مرحلة « الطوفان الغربيّ » ، الذي هو – في الدعاوى الغربية – نهاية التاريخ .. ومن لم يركب في سفينة النموذج الحضاريّ الغربيّ طوعًا ، فخطوط الصراع والإكراه معه وضده تحددها خطوط الثقافات والحضارات – كما حدد ذلك المفكر الاستراتيجيّ الأمريكيّ « هنتجتون » في مقاله « الكاشف » عن النزعة الغربية في صراع الحضارات ..

وإذا كانت لحظة سقوط الشيوعية قد مَثَّلت الإعلان عن لحظة ميلاد العولمة الغربية .. فلقد جاءت قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م لتُمَثِّلَ « الفرصة السانحة » لجعل هذه العولمة « صيدًا » أمريكيًا ، يستأثر الأمريكيون بمعظم خيراته دون الآخرين ، بمن في ذلك شركاؤهم الأوربيون !! ..

* * * *

وإذا كان « واقع » هذا الاجتياح العولميّ الغربيّ ، هو الشاهد على صدق هذا التحليل والتوصيف .. فإن في مصطلح « العولمة » شاهدًا ودليلاً أيضًا ..

فالعالمية – حتى بمفهومها الغربيّ – ونظرًا لملابسات التناقضات التي صاحبتها ، لم تحرمنا من هامش الاختيار .. أما هذه « العولمة » ،

التي مَثّلَتْ وتُمَثّلُ طور وحدة القبضة الغربية ، وثورة التقنيات التي جعلت وتجعل العالم أشبه ما يكون بالقرية الكونية ، مما يُؤَدّي إلى تصاعد مخاطر الاختلالات في موازين القوى على الأمم والحضارات المستضعفة ..

أما هذه « العولمة » فإن مصطلحها ـ حتى المصطلح ـ ينبئ هو الآخر عن هذا الجديد الذي تُمَثّلُه .. فالصيغة الصرفية « فَوْعَلَة » .. غالبًا ما تعني الدمج المخطط والقسري في قالب واحد ، ونفي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف .. نفهم ذلك . وقد عرفناه وعانيناه ـ عندما اكتوت شعوبنا « بالفرنسة » و « الجلنزة » ، و « الروسنة » و « الأمركة » ، و « الأسرلة » .. إلخ فهي ـ أي « العولمة » ـ مرحلة الاجتياح الغربيّ ـ وخاصة الأمريكيّ ـ لصبّ العالم في قالب النزعة المركزية الغربية ، على نحو غير مسبوق ، ودرجة لم يسبق لها مثيل ، بفعل المستجدات الجديدة ، في بنية الحضارة الغربية ـ بتزايد « فرعونيتها » و « قارونيتها » .. بعد وحدة قبضتها .. وضبط تناقضاتها .. وبفعل مستجدات عالم التقنيات وسلطان المعلومات .

⊠ ⊠ ⊠ ⊠

ميادين العولمة وتطبيقاتها

ولأن العولمة هي الاجتياح الغربيّ – بزعامة أمريكية – لِصَبِّ العالم في قالب الحضارة المهيمنة ، ولمصلحة أهلها .. فإن هذا الاجتياح الطوفانيّ لا يترك ميدانًا من الميادين إلا ويريد أن يطاله ويحتويه .. وخاصة إذا وجد « فراغًا » يغري بالاحتواء ! ..

ففي الاقتصاد :

هناك عولمةُ الخلل الفاحشِ الذي تُمَثِّله الليبرالية الرأسمالية المتوحِّشةُ ، بين الشمال والجنوب ، والذي بلغ – في الظلم الاجتماعيّ – حدًّا غير مسبوق .. فأبناء حضارة الشمال ، الذين بنوا رفاهية مجتمعاتهم الغربية على فائض النهب الاستعماريّ العالميّ .. والذين يمثلون ٢٠ ٪ من سكان المعمورة – يملكون ويستهلكون ٨٦ ٪ من الإنتاج العالميّ !! ..

وأكبر التجارات في اقتصاد هذه العولمة – : تجارة السلاح .. ثم تجارة المخدرات .. ثم تجارة الدعارة ! .. والإنفاق العالميّ على المخدرات يبلغ ٤٠٠ بليون من الدولارات ! .. أما الإنفاق العالميّ على الدعارة فهو ٢٠ تريليون دولار ! .. وعائد الاستغلال الجنسيّ لدعارة الأطفال وحدهم ، في أمريكا وحدها ، مليارا دولار سنويًا ! .. أما الإنفاق على السلاح فإنه يقترب من ١٠٠٠ بليون من الدولارات سنويًا .. وصناعته ، والصناعات المرتبطة به ، تستقطب

٩٠ ٪ من العقول العلمية في العالم !! .

وحجم ما ينفق على الخمور والقطط والكلاب المنزلية في أوربا وأمريكا يقترب من ألفي بليون من الدولارات سنويًا ! .. بينما لا ينفق على الصحة والتعليم والغذاء في عالم الجنوب - وفيه ٨٠ ٪ من البشر.. - سوى ١٩ بليونًا من الدولارات !! ..

وذلك هو اقتصاد الرأسمالية المتوحشة - التي يسمونها « نهاية التاريخ » ! - الذي يريدون عولمته ، وفرضه على العالمين ! ..

وإذا كانت أولى نتائج هذا الخلل الفاحش - الذي يجعل ٢٠ ٪ من البشر - أبناء الشمال - يستهلكون ٨٦ ٪ من ثروة العالم ، بينما يعيش ٨٠ ٪ من البشر على ١٤ ٪ من هذه الثروة - هي انعدام القدرة الشرائية لأغلبية البشرية ، فلقد دفع ذلك رؤوس الأموال العالمية - التي لا هَمَّ لها سوى اللهاث وراء تعظيم الأرباح - إلى التوجُه إلى الميادين الطفيلية ، بدلاً من الميادين الإنتاجية والخدمية .. فغير تجارات المخدرات .. وغسيل الأموال القذرة .. وشبكات تجارات الدعارة - التي أصبحت - في بعض البلاد - من « المصادر الأساسية للدخل القوميّ » ! .. وتكاد العمالة فيها تفوق العمالة في الصناعات الإنتاجية الأساسية !! - .. غير هذه الميادين المدمرة لإنسانية الإنسان ، توجهت أغلبية رؤوس الأموال العالمية إلى

السمسرة والمضاربات - ١٠٠ تريليون دولار - أي ٩٧ ٪ من حجم الأموال السائلة - بينما الموظف في الإنتاج والتجارة هو ٣٫٥ تريليون دولار، فقط لا غير ! ..

وعلى حين ارتفع حجم التجارة السلعية العالمية من ٢٥ تريليون دولار سنة ١٩٩٠ م إلى ٣٨ تريليون دولار سنة ١٩٩٨م .. فإن حجم التجارة في الأوراق المالية - أي المضاربات غير المنتجة - بل والمدمرة - قد ارتفع في ذات المدة من ١٥ تريليون دولار إلى ١٨٠ تريليون - والتريليون هو بليون بليون - أي أن هذه التجارة المدمرة والطفيلية قد بلغت في ظل العولمة ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ! .

وإذا كانت ديون العالم الثالث - أي ٨٠ ٪ من البشرية - قد بلغت سنة ١٩٩٧م ١٫٩٥٠ مليارًا من الدولارات .. تقتطع فوائدها - مجرد الفوائد - أربعة أضعاف ما تنفقه دول « العالم الثالث » على الصحة والتعليم مجتمعين ! .. فإن صورة هذه المأساة لا تفهم إلا إذا علمنا أن الشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات - التي تعولم هذا الاقتصاد « العالميّ » تقترض الدولارات من « وال ستريت » - حي المال والأعمال في أمريكا - بفائدة قدرها ٦ ٪ ثم تُقْرِضُ هذه الدولارات لبلاد الجنوب

بفائدة تتراوح بين ٢٠ % و ٥٠ % !! .. الأمر الذي جعل استدانة الجنوب من الشمال تعني تمويل الجنوب للشمال ، لا العكس ، وتنمية الجنوب للشمال بدلاً من العكس !! ..

فقرض قصير الأجل لمصر ، بلغت قيمته أربعة ملايين دولار ، أصبحت قيمته الإجمالية - مع الفوائد - عند اكتمال سداده ٢٢ مليونا !! ..(١) .

تلك هي المقصلة الاقتصادية التي يريدون عولمتها والتي تُمَثِّلُ العاصفة التي تطفئ شموع التنمية الاقتصادية الوطنية والمستقلة لبلاد الجنوب .

لقد تعدَّت الرأسمالية المتوحشة كُلَّ حدود الله .. واعتدت على الكثير من فرائضه ـ سبحانه وتعالى ـ ..

لقد أهدرت فريضة العدل ، عندما أفقرت أغلبية البشر ، وأخذت تزيدهم فقرًا على فقرهم .. بينما زادت القلة المُتْرَفة غنىً وكنزًا واحتكارًا وترفًا وفسادًا وإفسادًا .. فكان هذا المأزق - مأزق

(١) انظر الحقائق والأرقام الخاصة بذلك في « تقرير التنمية البشرية » - الصادر عن الأمم المتحدة سنة ١٩٩٨م - و « الأهرام » - القاهرة - مقالات : صلاح حافظ في ١٦ - ٩ - ١٩٩٨م .. و د. محمود عبد الفضيل في ١٥ - ٦ - ١٩٩٨م .. والسيد يسين في ٢١ - ١ - ١٩٩٩م . وكتاب [مغزى القرن العشرين] للدكتور أحمد شوقي - طبعة المكتبة الأكاديمية - القاهرة سنة ١٩٩٩م .

القارونية الغربية - الذي دفعت إليه العالم .. والمؤذن بالخراب والدمار ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] ، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] ..

ولقد اعتمدت هذه الرأسمالية المتوحشة - السَّفه والسَّفاهة سياسة عامة وسُنَّة مُتَّبعة ، عندما وَظَّفت الأغلبية الساحقة من رُؤوس الأموال في صناعات الدمار - الأسلحة الفتاكة والمحرمة دوليًا - وفي صناعات السفاهة والفساد والإفساد - المخدرات .. والدَّعارة .. والتَّرف القاتل لمكارم الأخلاق - .. فامتلك السفهاء صناعتي « المال » و « القرار » .. وعَانَدُوا التَّوْجِيه الإلهي : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء : ٥] .

ولقد وَظَّفت - هذه الرأسمالية المتوحشة - فوائض النهب الاستعماري ، وفوائض قيمة الاستغلال الرأسمالي في السمسرات والمقامرات والمُضَاربات ، فحجبت الأموال والنُّقود عن البيع ومعاوضة السِّلع والمنافع ، ودفعت بها إلى التجارة في النُّقود ، فحوَّلت العالم إلى « بورصة لمقامرات تيارات الأموال الساخنة » اللاهثة وراء الأرباح السريعة .. مُتجاهلة - بذلك - حكمة التشريع

الإلهي : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .. فكان فسادها وإفسادها للدِّين والدنيا جميعا .. ثم طمعت - بغطرسة القوة وجنونها - في عولمة هذا الفساد والإفساد ، وفَرْضُه على العالمين ..

وإذا كانت هذه الرأسمالية المتوحشة ، التي جمعت بين « الطفيلية » و « الاحتكار » - طفيلية الأنشطة والصِّناعات والتجارات الضارة ، واحتكار الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات والمتعدية القارات - قد دخلت بهذا النظام الرأسمالي إلى مأزق وكساد يَفُوق نظيره الذي حدث سنة ١٩٢٩ م .. فإن هناك حقائق لابد من تسليط الأضواء عليها ، لاستخلاص العظات والعبر والدروس من هذا المأزق الخطير الذي دفعت الرأسمالية المتوحشة العالم - كل العالم - إلى الدخول فيه .. ومن هذه الحقائق :

أولا : أن « هاوية القرن الواحد والعشرين » هي أشد وأخطر من « هاوية ثلاثينات القرن العشرين » ، وذلك بسبب نقل العولمة تأثيرات هذا المأزق الحالي وكوارثه إلى كل أنحاء العالم ، بسبب النظام شبه الحديدي الذي كبّلت به الرأسمالية الغربية الاقتصادات العالمية في الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وإذا كان كساد القرن العشرين قد أثمر ظهور النازية الألمانية ،

وإنعاش الفاشية الإيطالية ، ونشوب الحرب الاستعمارية العالمية الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥ م] التي أبادت قرابة الخمسين مليونًا من البشر .. وأفضت إلى استخدام السلاح الذري . لأول مرة في التاريخ . ضد اليابان ، في « هيروشيما » و « نجازاكي » . أغسطس سنة ١٩٤٥ م .. علاوة على دمار المدن .. والصناعات .. والأرضين .. .. فإن مأزق القرن الحادي والعشرين .. وكساده .. وانكماشه .. وخرابه مرشحة لأن تفضي إلى كوارث عالمية وعولمية لا نظير لها في تاريخ المآسي التي عرفتها الإنسانية عبر تاريخها الطويل ! .. اللهم إلا إذا انتفضت الأمم المستضعفة ، وانتقلت من مكان « التابع » للمركز الغربي إلى موقع « الاستقلال » ، الذي يُنجيها من الهلاك .

وثانيًا : إن هذا المأزق الذي صنعته الرأسمالية المتوحشة ، والذي دفعت وتدفع العالم إلى هاويته ، إنما يعود - بالدرجة الأولى - إلى طبيعة النظام الرأسمالي ، القائم على تعظيم الربح ورأس المال ، على حساب العمل والإنتاج .. فبعد أن أفقر هذا النظام سكان الجنوب . بالنهب الاستعماري .. والاستغلال الرأسمالي . وهم ٨٠ ٪ من البشرية - على النحو الذي فقدت فيه أغلبية البشر القدرة الشرائية ، التي تُنمّي الاقتصادات المنتجة ، وتدير عجلة الإنتاج والخدمات .. توجهت هذه الرأسمالية - الباحثة فقط ، واللاهثة قبل كل شيء وراء

تعظيم الأرباح السريعة والفاحشة - تَوَجَّهت إلى الرأسمالية الطفيلية - رأسمالية السمسرة والمُقَامرة والمغامرة والغَرر - وليس إلى رأسمالية الإنتاج والخدمات .. فكانت بداية الأزمة والمأزق ومَقدمات الانهيار في المؤسسات المالية الربوية - مؤسسات الإقراض الربوي .. والتجارة في النقود .. والتي ستنعكس - حتمًا - على مُؤَسَّسات الإنتاج والخدمات ..

وثالثا : إن هذا المرض العضوي في النظام الرأسمالي .. مَرَض « التجارة في النقود وفوائد القروض » ، لتعظيم الأرباح المركبة والفاحشة من السمسرة والمقامرة - أي التجارة في « الربا » ، بالمصطلح القرآني والإسلامي ..

إن هذا المرض يجب أن يُسَلِّط الضوء ويلفت أنظار العالم إلى الحل الإسلامي والعلاج القرآني لهذا المرض الرأسمالي العضال والوبيل ..

إن التجارة في النقد ، بدلاً من توظيفه ليكون بدلاً من السلع والخدمات - والتي هي لازمة من لوازم النظام الرأسمالي - والرأسمال المالي على وجه الخصوص - ..

إن هذه التجارة في النقود هي « المَقْصَلة » التي تُهَدِّد رِقاب العالم هذه الأيام .. وإن المنقذ منها هو النظام الإسلامي ، الذي تقوم فلسفته المالية والنقدية على قاعدة : **أن النقود ليست سلعة يُتَاجَر بها**

لِتَدِرَّ الأموال ، وإنما هي بدل للمنافع والسلع والخدمات .. وأن العمل والإنتاج هما مصدر الربح ، وليست التجارة في النقود ..

إن هذا النظام الإسلامي ، وفلسفته في الأموال ، هما المُنْقِذ من هذا الخراب الذي يُوشك أن يعم العالم ، إذا لم يتدارك العُقلاء ، وجماهير المستضعفين النظام الاقتصادي للعالم الذي نعيش فيه ..

إن تحريم الإسلام للرِّبا قائم على دعامتين أساسيتين :

الأولى : مَنْعُ الظلم ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۞ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١]. والثانية: تحريم التجارة في النقود، التي أفضت إلى تعميم الظلم على النِّطاق العالمي، بعد أن كان ظلمًا فرديًا في النظام الربوي القديم.

* * * *

وعلى الفكر الإسلامي ـ الاقتصادي.. والاجتماعي.. والفلسفي ـ أن يُقَدِّم الحل الإسلامي ـ القائم على توظيف النقود في الإنتاج والخدمات.. وليس في السمسرة والمضاربات والمقامرات والمغامرات والغَرر ـ..

على الفكر الإسلامي أن يُقَدِّم هذا الحل للعالم البائس الذي يبحث الآن عن المُنْقِذ والبديل.. وعلى العقل المسلم أن يُبرز أصالة هذا الحل الإسلامي ـ أصالة النظام اللاربوي ـ انطلاقا من القرآن الكريم، والسنة النبوية، التي وضعت البلاغ القرآني في الممارسة والتطبيق.. ومسيرة الحضارة الإسلامية، التي عظَّمت العمل النافع والإنتاج المفيد، وحصرت وظيفة النقود ورءوس الأموال في الإنتاج والخدمات.. وأيضا حرّمت وجرّمت النشاطات الاقتصادية فيما لا يفيد الحياة السوية للإنسان..

لقد اقترن تحريم الربا في الفكر الإسلامي بتحريم التجارة في النقود.. ولقد كتب عن فلسفة الأموال في الإسلام.. وعن وظيفة النقود..

وتحريم الاتجار بها .. فلاسفة وعلماء وفقهاء مسلمون كثيرون - من مذاهب فقهية متعددة .. وعصور مختلفة .. وبقاع متباعدة - منهم :

١- حجة الإسلام **أبو حامد الغزالي** [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] في « إحياء علوم الدين » - كتاب الصبر والشكر ..

٢- وفقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء **أبو الوليد ابن رشد** [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م] في « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

٣- ومجدد السلفية **ابن قيم الجوزية** [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] في « إعلام الموقعين عن رب العالمين »

٤- وإمام الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث الأستاذ الإمام **الشيخ محمد عبده** [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - في « تفسير المنار » ..

ولأن المقام مقام الإشارة والإيجاز ، فيكفي أن نُقَدِّم هنا عبارات من اجتهادات هؤلاء الأعلام - الذين اجتمعوا وأجمعوا - مع تعدد المذاهب والعصور والبقاع - على تحريم وتجريم الاتجار بالنقود .. هذه التجارة التي غدت أبرز أشكال الربا في الرأسمالية المعاصرة ..

▪ لقد تحدث **حجة الإسلام أبو حامد الغزالي** عن أن النقد إنما جُعِل وسيلة لتقويم السلع والأموال .. وأن الاتجار في النقد هو ككنزه سواء بسواء ، فهو يُخرجه عن الحكمة منه ، ويؤدي إلى تركزه في يد

المُتَاجِرين به ، وهو ظلم .. وكُفْرٌ للنعمة .. وخروج عن الحكمة

تحدّث الغزالي عن فلسفة الإسلام في النقود ـ قبل نحو ألف عام ـ فقال :

« لقد خلق الله الدّنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تُقَدَّر الأموال بهما . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لا غرض في أعيانهما .. فإذًا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، ولحكمة أخرى ، وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة .. فالنقد لا غرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض . فكل من عمل فيهما عملًا لا يليق بالحِكَم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحِكَم ، فقد كَفَر نعمة الله فيهما .. فإذًا من كَنَزَهُما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيها .. لأنه إذا كنز فقد ضيّع الحِكَم ، ولا يحصل الغرض المقصود به .

وما خُلقت الدراهم والدّنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرّفة للمقادير ، مقوّمة للمراتب .. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

وكل من عامَل معاملة الربا على الدراهم والدّنانير فقد كَفَر النّعمة

وظَلَم ؛ لأنهما خُلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما ، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودًا على خلاف الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وُضع له ظُلمٌ ..

فلو جاز لمن عنده نقد أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التَّعامل على النقد غاية عمله ، بقي النقد مقيدًا عنده ، فينزله منزلة المكنوز .. ولا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودًا للادخار ، وهو ظلم .. فكل ما خُلق لحكمة فلا ينبغي أن يُصرف عنها .. »[١] .

* ونفس الموقف – تحريم التجارة بالنقود .. أي تحريم الربا – نجده عند **ابن رشد** .. الذي يقول : « إنه يظهر من الشرع أن المقصود بتحريم الرِّبا إنما هو لمكان الغُبن الكثير الذي فيه . وأن العدل في المعاملات إنما هو مقاربة التساوي . ولذلك ، لما عسر إدراك التساوي في الأشياء المختلفة الذوات جُعل الدينار والدراهم لتقويمها ، أعني تقديرها ؛ إذ كانت هذه ليس المقصود منها الربح ، وإنما المقصود بها تقدير الأشياء التي لها منافع ضرورية ... »[٢] .

* وذات الموقف – تحريم الاتجار بالنقود – الذي هو جوهر الربا

---

(١) أبو حامد الغزالي [إحياء علوم الدين] – باب الشكر والصبر – ج ٢ ص ٢٢١٩ – طبعة دار الشعب – القاهرة .

(٢) ابن رشد [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] ج ٢ ص ١٥٠ – طبعة مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة سنة ١٣٩٤ – ١٩٧٤ م .

- تجده عند **الإمام ابن القيم** - الذي يقول : « إن القصد بالسِّكَّة - [النقود] - أن تكون معيارًا للناس ، لا يتَّجرون فيها .. ويشتدُّ الضرر من فساد معاملاتهم ، والضرر اللاحق بهم حين اتُّخِذَت الفلوس سلعة تُعدُّ للربح ، فعم الضرر وحصل الظلم ، ولو جُعلت ثمنًا واحدًا لا يزداد ولا ينقص ، بل تُقَوَّم به الأشياء ، ولا تُقَوَّم هي بغيرها لصلح أمر الناس .. فالأثمان لا تُقْصَد لأعيانها ، بل يُقْصد التوصل بها إلى السلع ، فإذا صارت في أنفسها سلعًا تُقْصد لأعيانها فسد أمر الناس .. وسرُّ **المسألة** ، أنهم مُنعوا من التجارة في الأثمان بجنسها ؛ لأن ذلك يفسد عليهم مقصود الأثمان ، ومُنعوا من التجارة في الأقوات بجنسها ؛ لأن ذلك يفسد عليهم مقصود الأقوات »(١) .

« وعلى نفس الدَّرب سار **الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده** .. فقال عباراته التي كأنها تصف الواقع المعاصر ، الذي أصبح كابوسًا يعيش العالم فيه ، قال : « إنَّ النقدينِ إنما وُضِعَا ليكونا ميزانًا لتقدير قيم الأشياء التي ينتفع بها الناس في معايشهم ، فإذا تحوّل هذا ، وصار النقد مقصودًا بالاستغلال فإن هذا يؤدي إلى انتزاع المال بالمال ، فينموا المال ويَرْبو عندهم ، ويُخَزَّن في الصناديق والبيوت

---

(١) ابن القيم [إعلام الموقعين عن رب العالمين] ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧ - طبعة بيروت - دار الجيل - سنة ١٩٧٣ م .

المالية المعروفة بالبنوك ، ويُبخس العاملون قيم أعمالهم ؛ لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه ، وبذلك يهلك الفقراء .. لذلك حَرَّمَ الله الربا .. إن أوربا نجحت في تحرير الناس من الرِّق ، ولكنها غفلت عن رَفْع نير الدِّينار عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يومًا ما .. »(١) .

* * * *

هكذا حرَّم الإسلام الاتجار بالنقود .. لأن المال لا يلد مالاً .. ولأن وظيفة النقود هي أن تكون وسطا تقيّم به المنافع .. وليس سلعة في ذاتها .. وتلك هي فلسفة تحريم الربا في الإسلام ..

وهكذا اجتمعت وأجمعت المذاهب الفقهية المعتبرة الكبرى - التي تستقطب جماهير الأمة الإسلامية - الشافعي - واستشهدنا له بحجة الإسلام الغزالي - والمالكي - واستشهدنا له بفيلسوف الفقهاء ابن رشد - والحنبلي - واستشهدنا له بالعلامة المجدد ابن القيم - والحنفي - واستشهدنا له بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - ..

اجتمعت وأجمعت مذاهب الأمة على تحريم التجارة في النقود .. أي تحريم « البلاء الرأسمالي » الذي وُظِّفَ ويُوَظِّفُ

---

(١) محمد عبده [تفسير المنار] ج ٣ ص ٩١ ، ٩٢ - طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

٩٧ ٪ من رأس المال المالي العالمي في السمسرة والمضاربات والمُقامرات والمغامرات والغَرر .. أي في الربا و « الاقتصاد الوهمي » للرأسمالية المتوحشة ، التي يريد الغرب الرأسمالي عولمة بلائها على العالمين ! ..

وإذا كان نَفَرٌ من عقلاء الغرب الذين هالهم هول هذا المرض العضوي والعضال للنظام الرأسمالي ، قد توجَّهُوا إلى الإسلام – بدافع « المنفعة » .. لا « الإيمان » – باحثين عن الحل والإنقاذ والبديل .. حتى لقد كتب « فنسان بوفيس » .. رئيس تحرير المجلة الأسبوعية الفرنسية [التحديات] Challenges عن حاجة العالم إلى النظام المالي الإسلامي اللاربوي ، وفلسفته في النقود – إبان زيارة بابا الفاتيكان لفرنسا – بنت الكاثوليكية .. وأكبر بلدانها – سنة ٢٠٠٨ م .. كتب فقال : « إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تحتاج جميع معالم النمو في طريقها ، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية . ولو طبّق رجال البنوك الطّامعون بالمردود على الأموال الخاصة ، ولو قليلا الشريعة الإسلامية ، ومبدئها المقدس : « المال لا ينتج المال » فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه .. » ![١] .

---

(١) انظر : أكرم بلقعيد [عودة البنوك الإسلامية ؟] – ملحق « لوموند ديلوماتيك » ـ النسخة العربية ـ صحيفة [الأخبار] ـ القاهرة في ٧ – ١١ – ٢٠٠٨ م .

لقد أفلست الرأسمالية المتوحشة – التي حسبها كهنتها « نهاية التاريخ » ! .. وهاهي – بآليات العولمة – تريد تعميم إفلاسها ومأزقها على العالمين . وهاهم عقلاء الغرب ، الباحثون عن « الحل .. والإنقاذ .. والبديل .. والخلاص » ، يجهرون بأن هذا الحل هو في القرآن والإسلام . وليس في النصوص البابوية !! – التي رعت وتعايشت مع النظام الرِّبوي ! .. فهل يكون العقل الإسلامي على مستوى الحضور المطلوب ؟! .. فَنُقَدِّم طوق النجاة للعالم – وليس فقط ، لعالم الإسلام – ؟ ! ونقيم الدليل المادي على أن قرآننا .. وإسلامنا .. ورسولنا ﷺ إنما كانوا ، ولا يزالون ، وسيظلون : هدى للعالمين .. ونورًا للعالمين .. ورحمة للعالمين ؟! ..

إنَّهُ التحدي الذي نرجو للعقل المسلم أن ينجح فيه .. وهو المدخل لتحطيم أغلال العولمة الغربية وتحرير العالم من هذه الأغلال .

والعولمة السياسية

وغير البعد الاقتصاديّ للعولمة .. هناك البعد السياسيّ ، الذي هَمَّشَ دور المنظمات الدولية .. والقانون الدوليّ لحساب تعظيم الهيمنة الأمريكية على العالم ..

فمجلس الأمن القوميّ الأمريكي يكاد أن يحلَّ محلَّ مجلس الأمن الدوليّ ! .. وقضايا العالم الإسلاميّ قد عهد بها إلى

« لوبي صهيونيّ » أمريكيّ ! .. والسيادة الوطنية لحكومات الدول القطرية والقومية تتآكل لحساب التَّدَخُّلِ الأمريكي الذي يسمونه « الإنساني » ..

بل ويتم الغزو والاحتلال لبلادنا الإسلامية باسم « الحروب الاستباقية » ! ..

وفي ذلك تستغلُّ « أوراق » كثيرة ، منها أوراق الأقليات .. حتى ليكتب كاتب نصرانيّ معلنًا التأييد لذلك ، فيقول : « إن المطالبة بممارسة ضغوط دولية على الدول من أجل المحافظة على حقوق مواطنيها واحترام المواثيق الدولية هو أمر مشروع تمامًا ، داخليًا وخارجيًا .. ولا عجب في هذا ، فنحن نعيش في عصر الدولة ناقصة السيادة ، وهذا أحد أهم أوجه ظاهرة الكونية » !![١] .

ولم يقل لنا لماذا تنتقص العولمة سيادة دولتنا الوطنية والقومية ولا تنتقص سيادة دول الهيمنة الغربية ؟ ! .. بل ويكون انتقاص سيادتنا لتعظيم سيادتهم هم ؟ ! .. الأمر الذي يجعل هذه العولمة غير عالمية ولا كونية بأي حال من الأحوال ! ..

بل حتى الحق الفطريّ - تقرير المصير - الذي قررته الشرعية

(١) مجدي خليل « مصر وأمريكا : أقباط مصر » - صحيفة « الأهالي » - القاهرة في ٢ - ٧ - ١٩٩٧ م .

الدولية سبيلاً لتحرير الشعوب من الاستعمار .. نرى العولمة تحرم منه شعوب الأمة الإسلامية – في فلسطين .. وكشمير .. والشيشان – وتحوله إلى أداة تفتيت للدول ذات السيادة ، التي تتمتع بعضوية الأمم المتحدة – كما حَدَثَ في حالة « تيمور الشرقية » التي تَمَّ فصلها عن أندونيسيا – وكما يحدث الآن في العراق والسودان !! ..

وهكذا تتحول السياسة الأمريكية إلى السياسة العالمية .. والمعولمة .. ويصبح لها نظريات ومنظرون .

والعولمة التشريعية

ويدعم هذه العولمة السياسية ، ويقنن لها « عولمةٌ تشريعية » يمارسها الكونجرس الأمريكي ، الذي لم تعد تشريعاته وقفًا على حدوده الوطنية – كما هو شأن اختصاصات كل برلمانات الدنيا – .. وإنما أخذ هذا الكونجرس ، يشرع للعالم بأسره .. فيصدر القوانين التي تصنف الدول إلى سافلة أو طيبة .. إرهابية أو مسالمة .. شريرة أو خيرة .. مارقة أو مطيعة .. بل ويعتمد الميزانيات – العلنية – لتغيير النظم وقلب الحكومات في الدول ذات « السيادة » بعد أن كان ذلك من أسرار المخابرات الأمريكية !! ..

والعولمة العسكرية

التي تفرض كل ألوان العولمة وأبعادها على من تحدثه نفسه بالتمرد

أو العصيان .. وإذا كان شاذًا - بكل المقاييس - أن تأتي الطائرات الأمريكية لتضرب شعب أفغانستان وشعب العراق ، بحجة « الدفاع عن النفس » - نفس الذين وَطَنُهُم وراء القارات والمحيطات ! .. فإن هذا الشذوذ قد قَنَّنَتْه العولمة في الاجتماع الذي تمّ لحلف الأطلنطي في عيده الخمسين - في إبريل سنة ١٩٩٩ م .

فهذا الحلف الذي تكون في إبريل سنة ١٩٤٩م « للدفاع عن أرض الدول المشتركة فيه » ، قد تَمّتْ عولمة ذراعه العسكرية وآلته الحربية ، عندما عدل ميثاقه لتكون مهامه « الدفاع عن مصالح » - وليس فقط « أرض » - الدول المشتركة فيه » ! .

وسرعان ما وجدنا تطبيقات هذا التعديل ، وجودًا عسكريًا لهذا الحلف - بقيادة أمريكا - في أفغانستان وفي العديد من بلاد العالم الإسلاميّ ..

بل إن هذه العولمة العسكرية قد نشرت القواعد العسكرية الغربية على امتداد أغلب بلاد العالم الإسلاميّ .. ونشرت الأساطيل الحربية الغربية في طول البحار والمحيطات الإسلامية .. حتى لقد نشرت مجلة « نيوزويك » - الأمريكية - خريطة لخمس وثلاثين قاعدة عسكرية غربية في بلاد المشرق العربيّ وحدها - منها ثلاثون في بلاد مجلس التعاون الخليجيّ !! - وهي قواعد ضُرِبَ منها العراق

في سنة ٢٠٠٣ م .. في سابقة ليس لها نظير في التاريخ[١] ! .. بينما لا يوجد للعالم الإسلاميّ في الغرب « عسكري مرور » .. ولا سفينة لصيد الأسماك !! ..

عولمة القيم الغربية

وإذا كانت العولمة العسكرية هي أداة « التأبيد » للعولمة الاقتصادية والسياسية والتشريعية .. فإن عولمة القيم والثقافة هي سبيل « التأبيد » لذوبان الحضارات غير الغربية في النموذج الحضاريّ الغربيّ .. فاحتلال العقل كان دائمًا وأبدًا السبيل لتأبيد احتلال الأرض ونهب الثروات ، دونما حاجة إلى نفقات القواعد العسكرية وتكاليف الجيوش ! ..

وإذا نحن أخذنا وثيقة مؤتمر السكان - الذي عقد بالقاهرة ٥ ـ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤ م - كنموذج من نماذج المواثيق التي تصوغ القيم الغربية ، ثم تعولمها وتفرضها على العالم باسم الأمم المتحدة .. فستجد في هذه الوثيقة عشرات الشواهد على هذا الاجتياح القيميّ الذي يتم باسم العولمة ، لعالم الإسلام وحضارات الجنوب .

فالأسرة ، التي هي قيمة من القيم الإسلامية - بل والإنسانية -

---

(١) نيوزويك - الطبعة العربية - عدد ٤ - ٢ - ٢٠٠٣م .

والتي تقوم على الزواج الشرعيّ بين ذكر وأنثى ، والتي تُمثِّلُ الوحدة الأساسية لبناء الأمة .. هذه الأسرة تريد وثيقة مؤتمر السكان « تغيير هياكلها » لتتسع لأي لون من ألوان الاقتران - غير الشرعيّ - حتى ولو كان شذوذًا .. فتدعو - هذه الوثيقة - صراحة - و « بإلحاح الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية ، والمنظمات غير الحكومية المعنية ، ووكالات التمويل ، والمؤسسات البحثية إلى إعطاء أولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية .. وينبغي القضاء على أشكال التمييز في السياسات المتعلقة بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى !! .. »[1] .

وإذا كانت العفة قيمة من القيم الإسلامية - بل والإنسانية - .. فإن هذه الوثيقة تتحدث عن « المتعة الجنسية المأمونة والمسئولة » - أي التي لا تؤدي إلى « الإيدز » - وليس عن « المتعة الجنسية الشرعية والمشروعة والحلال » ! .. فالجنس حقٌّ من حقوق الجسد ، ولكل الناشطين جنسيًا .. من جميع الأعمار .. والأجناس !! ..

---

(١) « مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية » الفصل الثاني عشر - الفقرة ٢٤ والفصل الخامس - الفقرة ٥ - والفصل الثاني - المبدأ ٧ والفصل السابع - الفقرات ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ - الترجمة العربية الرسمية - طبعة سنة ١٩٩٤ م .

وبنص هذه الوثيقة : فإن النشاط الجنسي « حق لجميع الأزواج والأفراد - [لاحظ الأفراد !] - سواء كان امرأة أو رجلاً أو مراهقًا أو مراهقة . وينبغي أن تسعى جميع البلدان إلى توفير هذه الحقوق لجميع الأفراد ، من جميع الأعمار ، في أسرع وقت ممكن ، وفي موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥ م .. »(١) !! .

ولقد ذهبت هذه الوثيقة على طريق الحرية الجنسية إلى الحد الذي جرّمَتْ فيه الزواج المبكر ، ودعت إلى إحلال الزنا المبكر بديلاً عنه .. « فالهدف هو الحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة .. وعلى الحكومات أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حيثما اقتضى الأمر .. ولاسيما بإتاحة بدائل تغني عن الزواج المبكر .. »(٢) ! « فالهدف هو الوقاء بالاحتياجات الخاصة بالمراهقين والمراهقات .. كيما يتعاملوا مع نشاطهم الجنسي بطريقة إيجابية ومسئولة »(٣) .

تلك مجرد إشارة لقطرة من بحار عولمة القيم الغربية في الانحلال .. ومصادمة الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

---

(١) المصدر السابق . الفصل السابع . الفقرات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٢) المصدر السابق . الفصل السادس . الفقرة ٧ - والفصل الرابع - الفقرة ٢١ .

(٣) المصدر السابق . الفصل السادس . الفقرة ٧ ، ١١ . والفصل السابع . الفقرات ٢ ، ٥ ، ٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

العولمة الدينية

وغير العولمة للاقتصاد .. والسياسة .. والتشريع .. والعسكرية .. والقيم .. هناك عولمة الدين ، بتنصير المسلمين طموحًا إلى إلغاء أمتنا وحضارتنا ، وطي صفحة الإسلام من سجل الوجود ! ..

فالكنيسة الكاثوليكية الغربية قد أعلنت الحرب لتنصير المسلمين – بدلاً من تنصير بيتها الأوربيّ الذي انحدر – بالعلمانية – إلى الإلحاد واللا أدرية ! – .. فرفعت شعار : « إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠ م » . فلما خيب الله آمالها ، لم ترْعَوِ ، وإنما زحزحت التاريخ إلى سنة ٢٠٢٥ م !! ..

وهي لا تستحي من الحديث عن « التحدي الإسلاميّ .. والفتح الإسلاميّ الجديد لأوربا » ..

فيقول مساعد بابا الفاتيكان ، ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة الكاردينال « بول بوبار » في حديثه لصحيفة « الفيجارو » الفرنسية – : « إن الإسلام يُشَكِّلُ تحديًا بالنسبة لأوربا ، وللغرب عمومًا . وإن التحدِّي الذي يُشَكِّله الإسلام يَكْمُنُ في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرّف ، في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى

تهميش الكنيسة أمام المجتمع »(١) .

أما البروتستانتية الغربية ، فإن « بروتوكولات قساوسة التنصير » فيها ، التي تبلورت في مؤتمر « كولورادو » - بأمريكا - سنة ١٩٧٨ م - قد قالت : « إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تُنَاقِضُ مَصَادِرُه الأصليةُ أُسُسَ النصرانية .. والنظام الإسلاميّ هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز للتركيز على الإسلام ، لفهمه ، ولاختراقه في صِدْقٍ ودهاء !! »(٢) .

ومع التخطيط لاختراق الإسلام وثقافته ، بالاعتماد المتبادل مع الكنائس المحلية .. ومن خلال العمالة الأجنبية .. تعلن البروتستانتية - بلا حياء .. ولا أخلاق - أن صناعة الكوارث في العالم الإسلاميّ هي السبيل إلى تحويل المسلمين عن الإسلام إلى النصرانية .. معتبرة أن هذه الكوارث هي إحدى المعجزات التي تُحَقِّقُ لهم تنصير المسلمين ..فيقولون : « لكي يكون هناك تَحَوُّل إلى النصرانية فلابد من وجود أزمات تدفع الناس خارج حالة التوازن التي اعتادوها .. إن تقديم العون

---

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » - لندن في ١ - ١٠ - ١٩٩٩ م .

(٢) التنصير : خطة الغزو والعالم الإسلاميّ ص ٧٥٢ - الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو - طبعة مركز دراسات العالم الإسلاميّ - مالطا - سنة ١٩٩١ م .

لذوي الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًا في عملية التنصير . وإن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيريّ ، فأصبحت أكثر تَقَبُّلاً للنصارى ..»[١] ! .

* * * *

هكذا تتم العولمة – والاجتياح الغربيّ للعالم – وللعالم الإسلاميّ على وجه الخصوص – وعلى كل الجبهات .. وفي مختلف الميادين .. من الاقتصاد .. والسياسة .. إلى القيم والثقافة .. وحتى الدين .. مرورًا بالعسكرية .. والتشريعات ! ..

إنها صراع .. وقسر . وتفتيت .. وفوضى – يسمونها الخلاقة ! – في إظهار الهيمنة الغربية – وخاصة الأمريكية – التي تريد صبَّ العالم في القالب الحضاريّ الغربيّ دون سواه ..

بينما العالمية الإسلامية – كما رأيناها – : تنوع .. وتعارف .. وتعايش .. وتدافع في إطار الوحدة الإنسانية والمشترك الإنسانيّ العام ..

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٤٢ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ .

والآن ... ما العمل ؟

(١)

إننا - ونحن نتحدث عن العولمة الغربية .. وتحدياتها .. وكيفية مواجهة هذه التحديات - يجب أن نميز في الغرب بين :

أ ـ الإنسان الغربيّ : فجماهير واسعة من هذا الإنسان الغربيّ تقف معنا ضد هذه العولمة المتوحشة حتى وإن اختلفت دوافع معارضة هذا الإنسان الغربيّ لهذه العولمة .

ب ـ والعِلْم الغربيّ : الذي هو مشترك إنسانيّ عام .. وحكمة أثمرتها عقول الحكماء والعلماء .. وعلى العاقل أن يسعى إلى طلب هذا العِلْم وهذه الحكمة أنّى وجدها ، فهو أحق الناس بها ..

جـ ـ ومشروع الهيمنة الغربية : الذي يناصبنا العداء على مر التاريخ ..

وبهذا التمييز ، سنجد لنا في الغرب حلفاء ونصراء في معركتنا ضد هذه العولمة الغربية المتوحشة .

(٢)

وعلينا - كذلك - أن نمدّ جسور التضامن والتساند مع حضارات الجنوب ، التي تعاني - بشكل أو آخر - من اجتياح العولمة الغربية لاقتصاداتها وثقافاتها ..

وإذا كان المفكر الاستراتيجيّ الأمريكيّ « صمويل هنتجتون »

قد أشار على صانع القرار الأمريكيّ - في دراسته عن صراع الحضارات سنة ١٩٩٢ م - بتجنيب أغلب حضارات الجنوب إلى أن تَفرَغ أمريكا من هزيمة الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية - الكونفشيوسية - ثم نعود لاحتواء هذه الحضارات! .. فإن علينا أن نجهض هذا المخطط - المعلن - وذلك بإحياء التضامن والتساند بين الإسلام والحضارات الشرقية والجنوبية .. وأن نستفيد في ذلك - من تراثنا وخبراتنا إبان معارك أمتنا في سبيل التَّحرُّر الوطني .. وآخرها خبرة بناء « حركة عدم الانحياز » .. وأن نستفيد - كذلك - من رصيد بلادنا في مساعدة حركات التَّحرُّر الوطنيّ في تلك البلاد ..

(٣)

وإذا كانت تقنيات العصر قد كادت أن تحوّل العالم إلى قرية كونية واحدة .. فإن علينا أن نبدأ « بترتيب البيت العربيّ والإسلاميّ » ، لتحويله إلى كتلة اقتصادية متكاملة ، تتساند فيها الطاقات والإمكانات .

إن العالم الإسلاميّ وحده يمتلك وطنًا مساحته ٣٥ مليونا من الكيلومترات المربعة .. تعيش فيه أمة تبلغ تعدادها قرابة المليار ونصف المليار من البشر ..

وغير الإمكانات الروحية والثقافية والحضارية التي يملكها العالم الإسلاميّ - وحدة العقيدة .. والشريعة .. والأمة .. والحضارة .. ودار الإسلام - فإن هذا العالم هو :

العالم الأول في البترول .. والغاز .. والمنجنيز .. والكروم .. والقصدير .. والبوكسيت .

وهو العالم الثاني في النحاس .. والفوسفات .

وهو العالم الثالث في الحديد .

والعالم الخامس في الرصاص .

والسابع في الفحم .

وفيه أطول أنهار الدنيا .. وأقدم فلاح علَّمَ الدنيا فَنَّ الزراعة .. وفي بلد واحد من بلاده - السودان - من الأراضي الصالحة للزراعة - بأرخص الأسعار - ما يجعله سلة غذاء لأمة الإسلام بأسرها .. وفي هذا العالم من البحار والمحيطات والأنهار ما يجعله المصدر الأول للثروة السمكية .

وإذا كانت الفوائض النقدية لعدد من دول هذا العالم الإسلاميّ تودع في الغرب لتعود - في شكل قروض وديون - لكثير من دوله ، ترهن استقلالها ، وتعوق تنميتها ، فإن توظيف هذه الفوائض في الإطار الإسلامي يمكن أن يُمثِّلَ ثورة تُحطِّمُ الأغلال التي تعوق

انعتاق هذا العالم من تَوَحُّشِ العولمة الغربية .

وإذا كانت أغلب ثروات العالم الإسلاميّ إنما تستخرج من باطن الأرض – وهي مركوزة فيها – فإن بابًا واحدًا من أبواب الزكاة – وهو زكاة الركاز – ٢٠ ٪ من قيمة ما يستخرج من باطن الأرض – يمكن أن يقيم « صندوقًا » لتنمية كل العالم الإسلاميّ بالحلال – وفقًا لحديث رسول الله ﷺ : « في الركاز الخمس » – رواه البخاريّ ومسلم والترمذيّ ومالك وأبو داود والإمام أحمد – .. وبعيدًا عن الربا الذي فاق في فحشه ربا الجاهلية القديمة .. وخارج أغلال المؤسسات الاقتصادية للعولمة الغربية – صندوق – النقد الدوليّ .. والبنك الدوليّ – .

وباستطاعة التكامل الاقتصاديّ أن يفتح حدود أوطان عالم الإسلام أمام التجارة البينية – التي تقف الآن عند ٨ ٪ من حجم هذه التجارة ، بينما ٩٢ ٪ منها قائم بين كل دولة قطرية وبين مراكز العولمة الغربية ! ..

إن تقنيات العولمة يمكن ، وأولى بها ، أن تعولم عالم الإسلام أولاً ، فتفتح حدوده للتجارة الإسلامية المتكاملة ، وللتكامل الصناعيّ ، والزراعيّ ، وبعد ذلك يكون التعامل مع الشمال ككتلة اقتصادية .. فذلك هو قانون العصر ، الذي تُطَبِّقُه أوربا

كقارة ، وأمريكا كقارة .. ونحن أولى بتطبيقه ، لأننا « أمة » ولسنا مجرد مساحة في الجغرافيا ! ..

ومنظماتنا الإقليمية - الإسلامية .. والعربية والإفريقية - لو نفخت فيها الروح ، وتم تفعليها ، يمكن أن تُمَثّلَ الشكل المعاصر لوحدة أمة الإسلام وتكامل دار الإسلام - أي الخلافة الإسلامية الجديدة - التي تزدهر في إطار جوامعها العامة ومصالحها المشتركة - مقاصد الدين والدنيا لأمة الإسلام .

إن المصالح الدنيوية تدفع الأمم والشعوب والحضارات - وحتى القارات - إلى التكامل والتساند والاتحاد .. ولدى أمة الإسلام - مع ضرورات الدنيا - مقاصد الدين وسعادة الآخرة من وراء هذا التضامن والتكامل والتساند والاتحاد ..

(٤)

وأخيرًا .. فإن « لترتيب العقل العربيّ والإسلاميّ » دورًا رائدًا وقائدًا في الدعوة إلى « ترتيب البيت العربيّ والإسلاميّ » ، وتهيئة الظروف لإقامة هذه التحالفات والتنظيمات التي تُمَثّلُ طوقَ نجاةِ أمتنا وعالمنا من هذا الاجتياح ..

وعلينا - أمام هذا الخطر المحدق - أن نتذكر ونعي خبرات أمتنا عبر تاريخها الطويل ..

فهذه الأمة هي التي أزالت القوى العظمى التي كانت تتحكَّم بالعالم عند ظهور الإسلام .. فكانت الفتوحات الإسلامية التي حَرَّرَتْ أوطان الشرق .. وحَرَّرَتْ ضمائر شعوبه ، بعد عشرة قرون من القهر والاستعمار .. حَدَثَ ذلك يوم فَتَحَ المسلمون في ثمانين عامًا أوسع مما فَتَحَ الرومان في ثمانية قرون ! ..

وهذه الأمة هي التي قهرت الغزوة الصليبية ، التي اشتركت فيها كل شعوب أوربا ، فكانت أولى الحروب العالمية في التاريخ ! ..

وهي التي هزمت التتار ، الذين لم يهزمهم أحدٌ غير المسلمين .. هزمتهم عسكريًا .. ثم قادتهم - بالحكمة والموعظة الحسنة - فدخلوا في دين الله .. وغدوا قوة ضاربة للدفاع عن الإسلام ! ..

وفي أوطان هذه الأمة كانت مقابر الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية الحديثة ..

وإذا كان « بونابرت » [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] ، الذي دوَّخ أوربا ، قد هرب من مصر بليل - رغم قَتْلِهِ سُبْع تعداد الشعب المصري يومئذ ! .. فإن رعاة البقر الأمريكان ، لن يكونوا استثناء من هذا المصير .. فلقد شاء الله - سبحانه وتعالى - لهذه الأمة أن تكون خاتمة أمم الرسالات السماوية .. والمؤتمنة على الوحي الخاتم والخالد .. وخير أمة أُخرجت للناس ..

وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨ - ١٤٢] .

تم بحمد الله

المحتويات

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

هذا الكتاب

هل « العولمة » هي « العالمية » ؟ .. أم أن « العالمية » هي تنوّع وتمايز في الحضارات والثقافات .. بينما « العولمة » هي – على النقيض – العمل على صبِّ العالم في قالب واحد هو قالب النموذج الغربيّ .. والأمريكي على وجه الخصوص ؟ .. وما هي ميادين العولمة ؟ .. وهل لها مخاطر مُحدقة بثقافتنا .. وقيمنا .. ولغتنا .. وديننا .. فضلاً عن اقتصادياتنا .. وسيادة دولنا الوطنية والقومية ؟ .. وكيف نتعامل مع « طوفان » العولمة ؟ .. أبالرفض السلبيّ ؟ ! .. أم بالمواجهة الواعية ، التي ترتب « البيت الإسلامي » فتعظّم إمكاناته .. وتنظم « العقل المسلم » فترتب أولوياته .. وذلك لتقديم « بدائل » التجديد والتقدم والنهوض ؟ .

ولمعرفة حقائق هذه القضية الكبرى .. والإجابة على هذه التساؤلات يصدر هذا الكتاب .

د. محمد عمارة